مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــ المجلد: 10 / العـدد:02 (جويلية2022) ص 500– 512
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

الجزائر بداية الاحتلال الفرنسي من خلال رحلة ابن طوير الجنة الوداني (1248هـ/1832م)

The Beginning of the French Occupation through the Journey of Ibn Tuweyr al-Jenna al-Waddani (1248HA/1832 AD)

طالبة دكتوراه: سلاف لبصير
Lebsir Soulef
1 جامعة زيان عاشور الجلفة (الجزائر)، souleflebssir8112022@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/02/14	تاريخ القبول: 2022/04/06	تاريخ النشر: 2022/07/14

الملخص:

تعد الرحلة مصدرا من مصادر التاريخ الأساسية، خاصة الرحلة الحجازية، وقد مر عبر الجزائر وفي أزمنة مختلفة الكثير من الرحالة المغاربة والأفارقة والشناقطة كونها الطريق الرئيسي للحجاج المغاربة والأفارقة ومنهم: العياشي، الناصري، الولاتي، أبن مليح...وغيرهم، ومن الرحالة الذين مروا على الجزائر بداية الاحتلال ابن طوير الجنة الوداني وكان ذلك سنة 1248هـ/1832م، ونزل بكل من مدينة بجاية والجزائر العاصمة وخلال الفترة التي قضاها في الجزائر ورغم أنها كانت قصيرة وعابرة، غير ان هذا الرحالة نقل بعض من مشاهداته حول مدينة بجاية والجزائر، وحول الاستعمار الفرنسي في الجزائر ونظرة هؤلاء الرحالة للاستعمار، وأعطى لنا بعضا مما كان سائد خلال تلك الفترة من معتقدات بين عامة السكان، وبالتالي ترك لنا مصدرا مهما عن الجزائر في بداية الاحتلال لا يمكن إغفاله، وهو ما سنتناوله في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، الاحتلال الفرنسي، الرحلة الحجازية، الشناقطة، رحلة المنى والمنة، ابن أطوير الجنة.

Abstract: The journey is considered as one of the main sources of history, particularly the Hijazi Journey. Through history, many Maghrebi, African Shanqitt travelers passed across Algeria because of its geographical location as being the main route for the Maghrebi and African pilgrims, including al-Ayyashi, al-Nassiri, al-Walati, Ibn Malih, and others. Amongst the travelers who passed across Algeria at the beginning of the French occupation, Ibn Tuweyr al-Janna al-Waddani, in1248HA/1832 AD, he stayed in the cities of Bejaia and Algiers. Though his stay in Algeria was short, he could describe some events he witnessed including the French occupation of Algeria, and his view of the colonization. He provided us with a description of the prevailing situation at that time including the ordinary people's beliefs. Therefore, he left an important source about Algeria at the beginning of the French occupation, which is our topic in this article.

Keywords: Algeria, French Occupation, Hijazi Journey, Shanaqita, The Journey of Muna and Minna, Ibn Tuwyer al-Janna.

المؤلف المرسل: سلاف لبصير ، الإيميل: Souleflebssir811@gmail.com

1. مقدمة:

يزخر أدب الرحلات بمصنفات نفيسة شملت كل المجالات يبرز ضمنها مخزون تاريخي له خصوصيته، وقد استأثرت الرحلة الحجازية (الحجية) على النصيب الأوفر، ذلك لأنها رحلة إيمانية يهجر فيها المرء أهله ووطنه ليتصل بالمشاعر المقدسة لأداء فريضة الحج، وضمن هذه الرحلة يبرز رجال الأدب، الفكر، العلم، الدين باختلاف مستوياتهم ومشاربهم ومكانتهم العلمية والاجتماعية ليسجلوا ما شاهدوه من معالم وما تعرضوا له من أحداث وما أحسوا به من مشاعر، وما صادفوه من أحداث ومواقف، وفي خضم ذلك ينتج نص الرحلة، والذي يكون مفتوحا على كافة الحقول بأشكال متكاملة وجزئية ليتناول جوانب ثقافية، علمية، فقهية، أدبية، اجتماعية، سياسية. والرحالة في ذلك العصر يشبه المصور الفتوغرافي الذي يلتقط مجموعة من الصور يخبرنا من خلالها عن مشاهداته وتأملاته.

والنص الرحلي هو مخزون معرفي دلالي تقدم فيه معلومات تاريخية قيمة عن منطقة ما في فترة زمنية معينة، ومن أهم الرحلات الحجازية الهامة ذات الدلالة المعرفية القيمة رحلة ابن طوير الجنة الوداني والتي بالرغم من أنها قدمت معلومات عن الجزائر في بضع ورقات إلا أنها تعتبر مصدرا هاما يؤرخ لمرحلة هامة من تاريخ الجزائر المعاصر وهي بداية الاحتلال الفرنسي، وعلى هذا الأساس كان اختياري لموضوع (الجزائر بداية الاحتلال من خلال رحلة ابن طوير الجنة الوداني 1248هـ/1832م. وينطلق البحث من إشكالية مفادها: كيف وصف لنا ابن طوير الجنة الوداني الجزائر بداية الاحتلال في رحلته الحجية ؟ وتندرج تحتها عدة اشكالات فرعية منها: من هو ابن طوير الجنة الوداني ؟ وما ابرز ما تضمنته رحلته ؟ ما هي أبرز ملاحظته عن الجزائر ؟ كيف كانت نظرته للاستعمار الفرنسي ؟ ما هي أهم الدلالات التاريخية المستوحاة من هذه الرحلة ؟ وتبرز أهمية الموضوع من أهمية الرحلة واهمية صاحبها والذي إلى جانب كونه رحالة هو فقيه وعالم ومؤرخ له كتابات تاريخية معروفة، ونهدف فيما نهدف إليه من خلال هذه الرحلة إبراز أهمية الرحلات الحجازية في الكتابة التاريخية، وتشجيع الباحثين على تناولها في أبحاثهم التاريخية، كونها مصدرا هاما من مصادر الكتابة التاريخية، والتعريف بابن طوير الجنة الوداني وإلقاء نظرة عن رحلته ومروه بالجزائر وإقامته فيها لمدة شهرين من خلال مشاهداته وملاحظاته التي قدمها خلال هذه المرحلة سنتين بعد سقوطها في يد الاحتلال الفرنسي.

ولتحقيق هذه الأهداف اعتمدت على مقاربة تحليلية تاريخية منهجية من خلال إبراز أكبر قدر من الجانب المعرفي الذي تضمنته الرحلة حول الوضع العام في الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي. وكان تناولنا لهذا وفق الخطة الآتية:

1 . التعريف بصاحب الرحلة.

2 . التعريف بالرحلة.

3 . أهم ما تضمنته الرحلة عن الجزائر.

4 . ما يمكن استفادته من الرحلة.

5. خاتمة.

1 . التعريف بصاحب الرحلة:

هو الطالب أحمد المصطفى بن طوير الجنة، ينتمي إلى قبيلة الصيام وهي إحدى بطون قبيلة إدولحاج الشنقيطية، ولد سنة 1145هـ/ 1732م في منطقة ودان بشنقيط شمال موريتانيا (الوداني، 2014، صفحة 29) درس في مسقط رأسه على يد علماء كبار منهم: أحمد السالم بن الإمام الحاجي، والسالك بن الإمام، والشيخ محمدن فال بن أمباركي الشمشوي، انتقل بعدها إلى تكانت ليدرس على يد الشيخ عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي، وبعد أن أتم دراسته عاد إلى مسقط رأسه وادان واسس محظرة لتدريس الطلبة قصدها الطلبة من مختلف الجهات ومن أبرز تلامذته محمد بن محمد الصغير بن أمبوحة التيشيتي، ومحمد الصابر وغيرهم، ترك ابن طوير الجنة الكثير من المؤلفات منها حوليات حملت اسمه ووضع فيها بعض التواريخ والأحداث وكانت بدايتها من وفاة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى سنة 1258هـ/1842م، وله أيضا "اختصار لنظم ابن شقرون الطب" وكتاب "فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان" و"رسالة في الرد على الرسالة الغلاوية للشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيد المختار الكنتي" و"كتاب في التوحيد في شرح عقيدة الطالب جدو الغلاوي" إلى جانب رحلته التي نحن بدارستها (الحاجي الوداني، 1995، الصفحات 26-29).

عرف ابن طوير الجنة بالورع والتقى كما كان صوفيا أخذ الطريقة الشاذلية على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله التوريني الذي اخذها عن أبيه عبد الله والأخير اخذها عن أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (بن حامد المختار، صفحة 93)، وتمكن من نسج علاقات قوية مع الحكام والسلاطين الذين مر بأرضيهم أثناء رحلته للحج ولهذا كان يكثر من الإطراء وكيل المديح لهم، توفي مؤلف الرحلة سنة 1256هـ/1849م، (الوداني، 2014، صفحة 29)

2 . التعريف بالرحلة:

هذه الرحلة من الرحلات الحجية سماها صاحبها "رحلة المنى والمنة" بدأها صاحبها يوم الخميس 07 جمادي الأولى سنة 1245هـ الموافق ل 08 من نوفمبر 1829م، وعاد إلى بلدته ودان يوم 27 من شعبان عام

1250هـ الموافق ل28 ديسمبر 1834 بمعنى أن رحلته استغرقت اربع سنوات وإحدى عشر شهرا وستة وعشرون يوما، أو بالأحرى خمس سنوات إلا أربعة أيام وهي من أطول الرحلات الحجية، وقد زار خلالها صاحبها في الذهاب تيشيت وولاته وتجاكانت في بلاد شنقيط، ثم زار منطقة السوس بالمغرب الأقصى، ثم مراكش وفاس والعرائش وفرن بالمغرب، وكان ينوي إكمال رحلته برا إلى الحجاز لكن بلغه بالمغرب الاحتلال الفرنسي للجزائر فقرر التنقل إلى مصر بحرا عبر جبل طارق ومنها إلى الإسكندرية، وركب منها في النيل إلى بولاق فالقاهرة ومنها إلى السويس، ثم بحرا إلى الينبوع ومنها إلى مكة المكرمة، والتي قدمها سادس ذي الحجة 1246هـ 18 إبريل 1831 وكان وقوفه بعرفة يوم 09 من ذي الحجة 1246 الموافق 21 إبريل 1831م، ومنها خرج إلى المدينة المنورة (الوداني، 2014، الصفحات 58-120)

ورحلة العودة للكاتب كانت بخروجه من المدينة يوم 22 محرم 1247هـ الموافق ل02 جويلية 1831م ومنها إلى مصر حيث زار القاهرة مرة أخرى، ومنها إلى الإسكندرية، ثم من الإسكندرية برا إلى درن بليبيا ثم إلى مدينة بنغازي ومنها إلى طرابلس ومن طرابلس ركبوا في البحر إلى جربة ومنها إلى صفاقص ومنها إلى سوسة فالمنستير والقيروان ثم مدينة بتونس، ومن تونس بحرا إلى بجاية ومنها بحرا إلى مدينة الجزائر، ثم إلى جبل طارق ثم إلى طنجة ومن طنجة زار وازان وبعدها ركب في السفينة إلى العرائش ومنها إلى الرباط ثم إلى مراكش ثم فاس ثم سافر إلى أولاد دليم ثم وادي نون ومنها عاد إلى بلاده ودان التي وصلها يوم 27 من شعبان عام 1250هـ الموافق ل28 ديسمبر 1834 (الوداني، 2014، الصفحات 121-315)

وفي كل مدينة كان يزورها كان يحرص كاتب الرحلة على زيارة علمائها وصالحيها وكان حسبه يلقى التبجيل والتعظيم سواء من طرف المسلمين أو النصارى، ويذكر كيف كان الناس يقبلون عليه ويقدمون له الهدايا النفيسة وأعز ما يملكون، وكيف ان الناس في الرحلة كانوا يخافون ويبكون من هول ما يلقون من المشاق وكان هو في غاية السرور والسعادة لنه بشر بالسلامة قبل بداية رحلته، وحتى القبطان في السفينة كانوا ينزلونه في قمرة القيادة ويقدمون له كل ما يطلب.

وقد نالت هذه الرحلة الكثير من الدراسة والبحث منها الموضوع الذي نشره الباحث عبد القادر زمامه ونشرت سنة 1977 (عبد القادر زمامه، 1977) وموضوع أبو القاسم سعد الله والذي نشره سنة 1979 في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (أبوالقاسم، 1979) ، وبحث كل من حليس عبدالقادر وشتوان نظيرة المنشور مؤخرا في مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية والتي تصدرها جامعة زياني عاشور بالجلفة (حليس عبدالقادر و

شتوان نظيرة ، 2021، الصفحات 241-246). وأجمعت كل هذه الدراسات والأبحاث حول الأهمية التاريخية لهذه الرحلة.

2 . أهم ما تضمنته الرحلة عن الجزائر:

بالرغم أن الحديث عن الجزائر في هذه الرحلة كان في بضع ورقات غير أنها تضمنت الكثير من المعلومات الهامة والقيمة عن تلك الفترة وهذا أهم ما تضمنته:

2 . 1 . بلوغه خبر احتلال الجزائر:

لقد كان أول ذكر للجزائر في بداية رحلته أثناء الخروج عندما كان في فاس حيث أنه كان ينوي مع رفقته السفر إلى الحج برا لكنه في فاس سمع أن الجزائر قد سقطت في يدي النصارى فراسل مع وفد الحجيج سلطان المغرب مولاي عبد الرحمان يطلب منه مساعدتهم في التنقل إلى مصر بحرا وهو ما تم ولم يذكر التاريخ بالضبط الذي سمع فيه أن الجزائر سقطت بيد النصارى لكن من خلال ما سبق من الرحلة أنه كان يوم عيد الأضحى 10 من ذي الحجة سنة 1245هـ الموافق لـ 01 جوان 1830م في تارودانت ثم انتقل بعدها إلى مراكش وباحتساب المدة التي بقي فيها في مراكش وأغمات وفاس نرجح أن الخبر قد وصله في شهر محرم عام 1246هـ الموافق لشهر جويلية سنة 1830 أي بعد أيام قليلة من سقوط مدينة الجزائر بيد الفرنسيين يوم 15 محرم 1246هـ الموافق 05 جويلية 1830م، وهو بذلك يخبرنا عن التأثير الكبير الذي أحدثه سقوط الجزائر على نفسية الحجاج الأفارقة وحجاج المغرب والذين فضلوا الحج ذلك العام بحرا على غير العادة (الوداني، 2014، الصفحات 66-79)

ثم أشار إلى الجزائر عند حديثه عن الاسكندرية وكيف أن أمر الإسكندرية صار بيد النصارى لأنهم أصبحوا يفرضون الحجر الصحي ومدته أربعون يوما على كل من يأتي إلى المدينة خوفا من العدوى والمرض، وقال لهم بعض أهل الإسكندرية أن سبب علو النصارى على المسلمين في هذه الأقاليم أخذ النصارى للجزائر، ثم تحدث عن ذكر الأولياء لاحتلال الجزائر، وذكر رواية عن عبد الرحمان المجدوب والذي قال حسبه لابد أن تؤخذ الجزائر فإن أخذها الفاسي هو الأول فإنه يأخذها الرومي وتبقى في يده أبدا (الوداني، 2014، صفحة 95).

3 . 2 . وصوله إلى بجاية وتفسيره لسبب احتلال الجزائر:

كان هذا في بداية رحلته ثم يعود للحديث عن الجزائر في آخر رحلته عند خروجه من تونس بحرا متجها لمدينة الجزائر آخر يوم من جمادي الأولى سنة 1248هـ الموافق ليوم 24 نوفمبر 1832م وأول ما نزل في رحلته في الجزائر كان مدينة بجاية بعدما دفعتهم الرياح الشرقية بعيدا عن الجزائر ثم عادوا أدراجهم إلى بجاية وفي بجاية نزل بعض من رفقاء ابن طوير الجنة ومنهم ولده محمد الصابر بينما بقي هو في السفينة، ويقول أن ولده لقي في

بجاية وليا من أولياء الله وهو محمد بن عبد الوهاب وأنه قال لولده قل لابن طوير الجنة أن ينزل لأبلغه بعض الأمور بعثني بها إليه ديوان الأولياء يتوسطهم الرسول صلى الله عليه وسلم وفيهم قطب الأقطاب عبد القادر الجيلاني وسبعة رجال الذين بمراكش ومولاي عبد السلام بن مشيش، وإدريس الأكبر وإدريس الأصغر ورجال وزان ورجال السودان وأقطاب الدنيا كلهم وديوان الأولياء كلهم، وإنهم يقولون لابن طوير الجنة افعل كذا وكذا أمور سرية وجهرية (الوداني، 2014، صفحة 208) ويقول ابن طوير الجنة أن الأمور الجهرية ذكرها أمام الجماعة ومنها أنكم تحت حراسة طائفة من الأولياء وستصحبكم إلى بلادكم ، كما قال له ان معكم ثلاثة أو إثنان من ديوان الأولياء منذ خروجكم من مكة، وعند سؤاله من طرف الشريف المدني هل هم مع الركب كله ؟ أم مع ابن طوير الجنة قال له: بل مع ابن طوير الجنة، وعند خروج الوكب بقي معه ابن طوير الجنة ويقول أنه أخبره ببعض الأمور السرية وقال له لا تخبر بها أحدا ويذكر ابن طوير الجنة أنه رأى ما أخبره به وأنه يرجو أن يرى الباقي، كما أخبره أنه أثناء مبيتهم عند سعيد الباجي كان ديوان الأولياء كله هناك ووسطهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهم بعثوا له معه بعض الأمور وقبل أن ينتهي اللقاء بينهم أمره بكتمان السر ويقول أنه كتبها حتى لا ينساها، ثم ذهب معه لزيارة أولياء بجاية الأموات وفيهم الوليان القطبان القرطبي وأحمد بن عبد الرحمان بن أحمد الوغليسي (ت 786هـ/1384م) ويواصل ابن طوير الجنة الحديث عن محمد بن عبد الوهاب البجائي ويقول أن بعض الجماعة ممن كانوا معه انزعجوا من أموره كلها ومن طول زيارته لهم فلما رأى ذلك أقسم أنه لو لم يقل له الرسول وديوان الأولياء أن أزوركم ما زرتكم (الوداني، 2014، صفحة 209) ويقول كاتب الرحلة أن ما جعله يصدق قوله أنه لا يخالط الناس أبدا ولا يجتمع مع أحد أبدا حتى أن ابن أخيه توفى وهم هناك ولم يحضر جنازته، وأنه بقى في الخلوة سبع سنين لا يلقاه أحد، ومن الأشياء التي أخبر بها ابن طوير الجنة أن ديوان الأولياء أخبروه أنهم يريدون أن يأخذوا الجزائر من عند أهلها لأنهم طغوا وتعدوا حدود الله فقل لهم الرسول صلى الله عليه وسلم لا حتى يأتي صاحب البلاد عبد الرحمان الثعالبي (ت876هـ/1471م) فأرسلوا له فجاء فقالوا له: نريد أن نأخذ بلدك، فقال لهم: خذوها فإنهم خرجوا عن طاعتي، فقال لهم عبد القادر الجيلاني: أنا أقول لكم أمرا ولا تفعلونه، فقالوا له : لا تقول لنا أمرا إلا فعلناه، فقال لهم: سلطوا الكفار على الفجار، فكان من أمر الله أن أخذها النصارى وهنا يذكر احتلال الجزائر من طرف فرنسا (الوداني، 2014، صفحة 210)

ويعطي ابن طوير الجنة تفسيرا للظلم الذي كان واقعا في الجزائر ويروي في سياق حديثه رواية يقول أنه سمعها عند أهل تونس مفادها: ان رجلا نزل في ميناء تونس يحمل صندوقا فيه عظام صبي فناده سلطان تونس وسأله عن العظام فقال له أنه كان في يوم من الأيام في السوق في مدينة الجزائر وذهب يقضي حاجته تاركا

زوجته تطبخ طعاما وبجانبها صبيها وبينما هي جالسة إذا برجلين قادمين ففهمت أنهما يريدان الفاحشة، فهربت وتركت صبيها بجانب القدر فجاءا ووضعا الصبي في القدر غضبا منها لأنها هربت، وعندما عاد الرجل وزوجته وجدا ابنهما عظاما بيضاء في القدر فجعل الرجل العظام في الصندوق وسار به إلى المدينة المنورة ليشتكي للرسول صلى الله عليه وسلم ما حل به (؟!) ويواصل التعقيب أن بسبب ذلك وبغيره أخذت الجزائر (الوداني، 2014، صفحة 210)

ومن خلال هذه القصة يحاول ابن طوير الجنة أن يعطينا تفسيرا من وجهة نظره يبرر فيه احتلال الجزائر وأن هذا احتلال كان قضاء وقدر وأنه جاء بسبب ظلم وجور الحكام العثمانيين كما أن القصة التي رواها لم نجد لها سندا في المصادر التاريخية وحتى المصادر الفرنسية التي أرخت للحملة لم تذكرها، اما عن سبب انتشارها في تونس فهو في نظرنا لا يعدوا سوى أن يكون من باب الصراع بين حكام البلدين وهو صراع امتد لقرون، كما يعطينا فكرة سائدة عن ذلك العصر الذي انتشرت فيه الدروشة والتفسير الغيبي للأحداث.

ومن الأشياء التي أخبر بها محمد بن عبد الوهاب البجائي صاحب الرحلة في بجاية أن أبا سعيد الباجي والذي هو قدام مدينة تونس المحروسة تنازع مع أولياء بجاية وقال لهم أن ابن طوير الجنة سوف يذهب من تونس للجزائر ولا يزور بجاية، فقال أولياء بجاية أنت زارك وانتفع بك ونحن لا ؟ والله لو بلغ بلاده لنرجعنه، ولهذا يقول: أن الرياح الشرقية قهرتهم حتى تعدوا مدينة الجزائر ثم أعادتهم الرياح الغربية إلى بجاية، وهذا بسبب بركة أولياء بجاية، وهنا هو يعطينا تفسيرا لما وقع لهم في البحر عند رحلتهم من تونس إلى مدينة الجزائر وكيف أن قائد السفينة ضل الطريق وأخذتهم الرياح الشرقية بعيدا عن الجزائر ثم أعادتهم الرياح الغربية إلى بجاية (؟!) (الوداني، 2014، صفحة 210).

3 . 3 . وصوله لمدينة الجزائر وحديثه عنها:

بعد أن بقى في بجاية أيام خرج صاحب الرحلة مع وفد الحجاج المرافق له إلى مدينة الجزائر بحرا ويقول أنها كانت في يد النصارى، ولما وصلوا إلى ميناء الجزائر فرض عليهم الحجر لمدة عشرة أيام في السفينة خوفا من نقل الأمراض، وجاءهم رسول معه ترجمان وطلب منهم أن يخرجوا لهم صاحب الرحلة فخرج وإذا بالترجمان واقف ومعه ورقة وقلم وسأله عن اسمه، واسم ابيه، واسم مدينته، فسار بتلك المعلومات إلى قائد الفرنسيين في مدينة الجزائر وكان في ذلك الوقت الدوق دور رفيكو، ويقول صاحب الرحلة أنهم أرسلوا تلك المعلومات إلى سلطان فرنسا في بلادهم، فقال لهم: أعطوهم كل ما يحتاجونه في الحجر يقول ومنذ ذلك اليوم كانوا يرسلون لهم في مركب الخبز واللحم والخضر والفواكه، ولما أتموا عشرة أيام المخصصة للحجر أرسلوا لهم قارب وقالوا ينزل فلان وخاصته، فقالوا

لهم إنما نحب أن نركب في السفينة التي تقلنا ولا نحب النزول، ولكنهم يقول ألحو عليهم بالنزول للتبرك بهم، فنزلوا جبرا لخواطرهم، ويقول أن الدار التي نزلوا بها كانت أعلى دار في مدينة الجزائر وهي دار جميلة مزخرفة وفرشها اثير، وكلفوا بهم شخص نصراني وزوجته وغلامين يهوديين مترجمان لهم، ويقول أنهم أحضروا لهم جميع ما يحبون من لحم ودجاج ومختلف أنواع الأطعمة، وكذلك أواني إعداد الشاي وكلف من يعده لهم فكان يصنعه لهم في أي وقت يريدون ذلك، وكانوا يحضرون لهم في كل الأوقات الفجل، وأنه أخذ بذره معه من عند الفرنسيين في الجزائر وزرعه في ودان ويقول أن فيه فوائد كثيرة، ويقول أنه لم يأكل في حياته ثلاث مرات في اليوم إلا في الجزائر بسبب الفجل والشاي الذي كان يشربه لأنه يساعد على الهضم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن صاحب الرحلة قد طاب به المقام في هذه المدينة وقد سحرته بمناخها وجمالها وهوائها (الوداني، 2014، الصفحات 212-213).

وفي مدينة الجزائر يقول صاحب الرحلة أنه أخذ حكمة عظيمة من احد علمائها، نصها: "خذ من الفجل الورق، ومن اللحم المرق، ومن الحمام العرق"، وفي مدينة الجزائر قدم له الحاج مصطفى مصحف شريف، ويقول أن الحاكم الفرنسي الدوق دي رفيغو والذي عين حاكما عاما للجزائر في ديسمبر 1832ن كان يرسل له كل ما يحب في أول النهار وفي آخره، وكل شيء يطلبه موجود، وقد قال الحاكم العام لمن وكلهم بهم النصراني وزوجته: "إياكما ثم إياكما أن يحتاجوا أي شيء هم وجماعتهم الذين في السفينة"، وفي مدينة الجزائر جاء جميع القادة لتحيته والسلام عليه، وبعد مدة ابلغه الحاكم العام أنه أحضر لهم مركب قرصان لينقلهم إلى جبل طارق، وكلف شخص بعد أصحاب ابن طوير الجنة ومن جاء معه من حجاج ودان، بينما بقى الحجاج المغاربة فاحتجوا عنده كيف يتركهم في بلاد النصارى ويذهب هو، فيقول أنه راسل دي رفيغو وطلب منه أن ينقل معهم جميع الحجاج بما فيهم المغاربة لأنه لا يرضى أن يركب هو ويبقوا هم في الجزائر، فقال له: أركب جميع من أحببت أن يركب معك (الوداني، 2014، صفحة 215).

ويوصل ابن طوير الجنة في رحلته إلى الجزائر وصف ما شاهده حيث يقول: أن النصارى ضيعوا جميع المساجد والزوايا في الجزائر غير زاوية الشيخ عبد الرحمان الثعالبي، وأنهم كلما أرادوا بها سوء سلط الله عليهم البلاء، وقد زار مع من كان معه قبته وضريحه اكثر من مرة أثناء إقامتهم في الجزائر، وأعطاه مقدم الزاوية والجامع شمعات للبركة، واعاد سرد القصة التي ذكرها في بجاية والتي مختصرها أن ديوان الأولياء اجتمعوا وقالوا نريد أخذ الجزائر من أهلها لأنهم طغوا وتجبروا لكن الرسول أخبرهم لا تفعلوا حتى ترسلوا وتستأذنوا من ولي البلاد الشيخ عبد الرحمان الثعالبي، فأرسلوا إليه وقالوا له: نريد أن نأخذ الجزائر بسبب تعدي وتجبر سكانها، فقال لهم: أفعلوا بها ما

بدا لكم فإني متبرئ منهم فقد خرجوا عن طاعتي، فقال الشيخ عبد القادر الجيلاني سلطوا الكفار على الفجار(؟!) (الوداني، 2014، صفحة 216).

ويواصل ابن طوير الجنة في مدح الشيخ الثعالبي وأنهم يقولون حسبه: أن كتب النور ثلاثة منها إتنان للثعالبي وهما: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن، والعلوم الفاخرة في النظر في أمور الأخرة"، ويذكر كذلك أن احاكم الفرنسي أفرش له الحرير لكنه رماه بعيدا حتى أنه هو الآخر رماه جبرا لخاطره، ويقول أنه عند لقائه به كان معه أكثر من مائة من الخدم وكان معه مترجم، ويقول أنه بقي معه حوالي ساعة في أنس وكان معه في السفينة مائة وعشوين جندي ومثلها من المدافع، وأنهم ملأوا سفينتهم بالكباش والبقر والدجاج والدقيق المطحون والشاي وأدوات صنعه، والكسكس والدهن، وكل هذا يقول كان من مال النصارى، وقبل مغادرته الجزائر وهو في قمرة قيادة السفينة جاءته زوجة الحاكم العام وأولاده ذكورا وإناثا ومعهم الترجمان وكانوا مسرورين غاية السرور وقد أرسلهم الحاكم العام لتوديعه وهذا يقول كان غاية الإكرام والتبجيل وكان خروجهم من الجزائر أواخر رجب سنة 1248هـ 22 ديسمبر 1832م، بلا كراء ومجانا ومعهم كل الأطعمة بلا شراء (الوداني، 2014، الصفحات 217-218). وبالتالي تكون المدة التي قضاها الرحالة في الجزائر منذ خروجه من تونس تقريبا شهرين جمادي الثانية ورجب من سنة 1248هـ.

4 . ما يمكن استفادته من الرحلة:

إن القارئ لرحلة ابن طوير الجنة الوداني حتما سيستشف الكثير من المعلومات التاريخية الهامة خاصة أن صاحب هذه الرحلة لم يكن شخصا عادي بل كان عالما ومؤرخا ومعروفا بتوجهه الصوفي وبالتالي ملاحظته وما كتبه حتما يختلف عن ما كتبه الآخرون وعند قراءة ما بين سطور هذه الرحلة نستشف شخصية ابن طوير الجنة الوداني المؤمن برجال التصوف وكرماتهم وأمورهم الخارقة للعادة ومن الإشارات التي تظهر من خلال رحلته نجد:

. حديثه أن احتلال الجزائر كان حدثا عظيما وكيف أن الحجاج المغاربة والشناقطة لم يستطيعوا الذهاب برا إلى الحج عبر الجزائر كما تحدث على أن أحد الأشخاص أخبره في الإسكندرية على أن النصارى بدأوا يستعلون على الناس في مصر منذ أن احتلت فرنسا الجزائر، وهذا ما يؤكد على أن سقوط الجزائر كان ضربة قوية للعالم الإسلامي وخاصة منطقة حوض المتوسط.

. عند حديثه عن احتلال الجزائر المحروسة يتحدث عن رواية مفادها أن ديوان الأولياء أخبروه أنهم يريدون أن يأخذوا الجزائر من عند أهلها لأنهم طغوا وتعدوا حدود الله فقل لهم الرسول صلى الله عليه وسلم لا حتى يأتي

صاحب البلاد عبد الرحمان الثعالبي (ت876هـ/1471م) فأرسلوا له فجاء فقالوا له: نريد أن نأخذ بلدك، فقال لهم: خذوها فإنهم خرجوا عن طاعتي، فقال لهم عبد القادر الجيلاني: أنا أقول لكم أمرا ولا تفعلونه، فقالوا له : لا تقول لنا أمرا إلا فعلناه، فقال لهم: سلطوا الكفار على الفجار، فكان من أمر الله أن أخذها النصارى ويقول أن هذه الرواية أخبره بها أكثر من شخص وسمعاها في تونس وصدقها وهو يعطينا فكرة عن ما كان سائدا في تلك الفترة في العالم الإسلامي من انتشار الدروشة والولاية وتصديق كل ما يقال، ثم يتحدث عن ظلم العثمانيين وفجورهم ويروي قصة خيالية للطفل الذي رمي في القدر وهذه القصة لم ترد في المصادر وهي قصة سبق وتم ذكرها وهو تيار كان سائدا في البلدان العربية لضرب الدولة العثمانية وكان المستعمر من يروج لهذه الإشاعات والأخبار الكاذبة حتى يظهر بدور المنقذ والمتحضر وقد انطلت هذه الحيلة على الكثير من العلماء فما بالك بالعامة من الناس (الوداني، 2014، صفحة 210).

. يذكر صاحب الرحلة حسن معاملة الفرنسيين له وللركاب ويطنب في مدحهم ومنهم حاكم الجزائر الدوق دور رفيكو المعروف بجرائمه في حق الجزائريين ومذابحه، ولكنه مع هؤلاء الحجاج كان لطيفا، وأرسل زوجته وأولاد لتوديعهم، وهو يحاول إظهار الوجه الحسن لفرنسا وقد أثر في صاحب الرحلة أيما أثر وأعطاه كل ما يريد وكل هذا يدخل ضمن سياسة الإغراء التي كان يطبقها المستعمر، ويبدو أن صاحب الرحلة قد تأثر بالدعاية الاستعمارية وانساق لها رغم أنه أشار إلى هدم المساجد والزوايا والمدارس القرآنية لكن كل ذلك له ما يبرره طالما أمن هذا قضاء وقدر وأن ذلك تم بموافقة الأولياء ومنهم صاحب مدينة الجزائر الشيخ عبد الرحمان الثعالبي. ويبدو أنه حتى الفرنسيين أعجبهم التفسير وراحوا يروجونه لإفشال أي مقاومة، ويبدو أن أحد لم يخبره عن جرائم الفرنسيين ومنها مذبحة العوفية التي وثقتها المصادر التاريخية (سعدالله، 1982، صفحة 89) (هلال، 1995، صفحة 68)

. الكاتب يعطينا فكرة عن حياة الفرنسيين في الجزائر وكيف كانوا يتنعمون بخيراتها وكيف طاب به المقام فيها وقد سحرته بمناخها وجمالها وهوائها، وكيف أنهم ملأوا سفينتهم بالكباش والبقر والدجاج والدقيق المطحون والشاي، والكسكس والدهن، وكل هذا مجانا ويقول أنه لم يأكل في حياته ثلاث مرات في اليوم إلا في الجزائر بسبب الشاي والفجل، وهو بذلك يخبرنا عن الحياة الرغيدة التي كان يعيشها الفرنسيون بينما كانت الناس تموت من المجاعة بعدما صودرت ممتلكاتهم وخيراتهم ومحاصيلهم (زقب، 2013، الصفحات 307-324).

5. خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية خرجنا بمجموعة من النتائج من بينها:

. تعتبر رحلة ابن طوير الجنة الوداني من المصادر التاريخية القيمة والهامة التي قدمت لنا جانب من الحياة الثقافية والسياسية للجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي.

. حرص ابن طوير الجنة في رحلته على تقديم أخبار عن الاحتلال الفرنسي للجزائر وما أحدثه من فزع في العالم الاسلامي واستعلاء للنصارى الأوربيين وكيف تحدث بذلك الناس في مصر والمغرب.

. حاول الكاتب أن يعطي تفسيرا غيبيا لاحتلال فرنسا للجزائر مشيرا إلى أن بلاء الفرنسيين (النصارى) جاء بعد تبري أولياء المدنية وعلى رأسهم عبد الرحمان الثعالبي مما حدث في البلاد من فساد وابتعاد عن الله، ثم قول الشيخ عبد القادر الجيلاني "سلطوا الكفار على الفجار".

. أخبرنا عن السياسة الفرنسية في القضاء على المعالم الثقافية والدينية من زوايا ومساجد في مدينة الجزائر والتي لم يبقى بها سوى مسجد الثعالبي.

. تظهر في هذه الرحلة روح التصوف القوية التي كان يتميز بها صاحب الرحلة، وإيمانه المطلق بالأولياء وكرماتهم وأنهم أصحاب دعوة مستجابة.

أشار الكاتب إلى مظاهر التقدير التي حظي بها من طرف الفرنسيين الذين أصروا على صاحب الرحلة وخاصته للإقامة في مدينة الجزائر –حسب قوله– للتبرك بهم وقد طاب بهم المقام وسحرتهم المدينة بجمالها.

–خصص ابن طوير الجنة جانبا هاما من رحلته في الجزائر للحديث عن معاملة الفرنسيين الجيدة، وعن السخاء والكرم الذي حظوا به أثناء إقامتهم في المدينة، دون إشارات واضحة عن حالة الجزائريين جراء هذا الاحتلال فيبدوا أنه تأثر بالأفكار الصوفية التي سادت في البلاد خلال هذه الفترة.

كما نخرج من هذا البحث بمجموعة من التوصيات من أهمها:

. ضرورة الاهتمام بكتابات الرحلة خاصة الحجية منها وإعادة قرأتها قراءة نقدية كونها مصدرا مهما من مصادر تاريخ الجزائر. وجميع المتروك من المصادر غير التاريخية مثل: كتب النوازل، والأدب، والروايات الشفوية... وغيرها، لأنها تساعدنا في ملء الفراغات التاريخية، والتي لم تتحدث عنها الكتب التاريخية.

. تبقى هذه الرحلة في حاجة إلى دراسات أخرى لفهم دلالاتها الفكرية والسياسية حول الجزائر بداية الاحتلال، خاصة أنها تتناول وجهة أخرى عن الاحتلال، كما أنها تعطينا فكرة عن السياسة الاستعمارية.

5. قائمة المصادر والمراجع:

. ابن اطوير الجنة الحاجي الوداني الطالب أحمد (2014)، رحلة المنى والمنة، تحقيق محمد الظريف، منشورات مؤسسة الشيخ مريبه ربه لإحياء التراث والتنمية، مطبعة المعارف، الرباط.

. ابن اطوير الجنة الحاجي الوداني الطالب أحمد (1995)، تاريخ ابن طوير الجنة، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم، منشورات معهد الدراسات الإفريقية جامعة محمد الخامس، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

. التازي عبد الهادي(1422)، التحليق إلى البيت العتيق، إصدارات دائرة الملك عبد العزيز، الرياض.

. بن حامد المختار(د. س ن)، حياة موريتانيا الجزء الثاني الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، القاهرة.

. حسن العارف يوسف (2014)، الرحلات الحججية (قراءة في المتن والمضامين)، مؤسسة الانتشار العربي، عمان، الأردن.

. حليس عبدالقادر وشتوان نظيرة (2021)، دراسة في بعض رحلات المغاربة الحجازية في العصر الحديث) –رحلة أحمد بن طوير الجنة نموذجا، مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، مجلة علمية محكمة تصدرها جامعة زياني عاشور الجلفة، المجلد 3, العدد 10, الصفحة 241–246.

. زقب عثمان (2013)، إبادة الجزائريين خلال الاحتلال الفرنسي بين الأفعال المعزولة والاستراتيجية الاستعمارية، مجلة البحوث والدراسات، السنة 10، العدد 16، صفحات 307–324.

. زمامه عبد القادر(1977)، رحلة القرن 13ه/19م لجامعها ومنشئها الطالب أحمد بن طوير الجنة، مجلة البحث العلمي، العدد 28.

سعد الله أبو القاسم (1982)، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

. سعد الله أبو القاسم (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي (1500–1830)، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر.

. سعد الله أبو القاسم (1979)، حول رحلة الطالب أحمد بن طوير الجنة، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد 54، ج3، دمشق.

. شرف عبد الحق (2013): الجزائر في عيون الرحالة الجزائريين خلال القرن 19م الرحالة المشرفي نموذجا، المجلة الجزائرية للمخطوطات مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة أحمد بن بلة 01 وهران، المجلد 9, العدد 10, الصفحة 159–180.

. عمار هلال (1985): أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830 . 1962م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

–Reiné Bosset, missaoui au Senegal (recherche historique sur les maures), Ernest lerous, Paris.